المحاضرة الثانية: في البلاغة والفصاحة
التعريفات اللغوية والاصطلاحية

جامعة مولاي إسماعيل

كلية الآداب والعلوم الإنسانية | مكناس

جامعة مولاي إسماعيل
UNIVERSITÉ MOULAY ISMAÏL

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
FACULTÉ DES LETTRES ET DES SCIENCES HUMAINES

ماستر الأدب المغربي وجدلية الإبداع والنقد

وحدة: النقد العربي القديم

إعداد الأستاذ: إدريس موحتات

النقط الأساسية للمحاضرة

- الفصاحة والبلاغة لغة واصطلاحا
- تعريفات القدماء
- تعريفات المحدثين
- خلاصة

تعريف الفصاحة لغة

- تتضمن كلمة "فصاحة" في المعاجم اللغوية معاني كثيرة، وبالرغم من هذا التعدد فإنها تلتقي عند معاني أساسية وهي: (الظهور)، و(الوضوح) و(البيان).
- ومن بين التحديدات التي تضمنتها المعاجم القديمة، وتكررت عند البلاغيين القدماء على اختلاف أزمانهم وأوطانهم ما يلي:
- - أفصح فلان عما في نفسه إذا أعرب عنها، وأفصح الصبي في منطقه وفصح فيه إذا فُهِم عنه عندما يشرع في الكلام.
- أفصح الأعجمي إذا أطلق لسانه بالعربية ولا تشوبه لكنة.
- وغالبا ما يستشهدون بقوله تعالى حكاية عن موسى: (وأخي هارون هو أفصح مني لسانا). أي أظهر وأبين مني قولا.

تعريف الفصاحة اصطلاحا

- وفصاحة الكلام تعني خلوصه من الصفات الآتية: (ضعف التأليف، وتنافر الكلمات، والتعقيد)
- وذهبوا إلى أن الفصاحة يختلف معناها باختلاف موصوفها، فالموصوف يمكن أن يكون كلمة، ويمكن أن يكون كلاما، ويمكن أن يكون متكلما.
- يقال هذه كلمة فصيحة إشارة إلى كلمة معينة كلفظة (مزنة).
- ويقال : هذا كلام فصيح، إشارة إلى مركب معين كقولنا: (الشمس مشرقة)، و(السماء صافية)،
- ثم يقال (هذا متكلم فصيح)، إشارة إلى شخص يُفهم كلامه ويصح منطقه.

البلاغة في المعاجم اللغوية: (لسان العرب)

- جاء في معجم لسان العرب لابن منظور ما يلي:

- بَلَغَ الشيءُ يَبْلُغُ بُلُوغاً وبَلاغاً: وصَلَ وانْتَهَى، وأَبْلَغَه هو إِبْلاغاً وبَلَّغَه تَبْلِيغاً. البَلاغُ: ما تُبَلَّغُ به ويُتَوَصَّلُ إِلى الشيء المطلوب. والبَلاغُ: ما بَلَغَكَ. والبَلاغُ: الكِفايةُ؛ وتقول: له في هذا بَلاغٌ وبُلْغةٌ وتَبَلُّغٌ أَي كِفايةٌ.
- والإِبلاغُ: الإِيصالُ، وكذلك التبْلِيغُ، والاسم منه البَلاغُ.
- وشيءٌ بالغ أَي جيِّدٌ، وقد بلَغَ في الجَوْدةِ مَبْلغاً.

والمُبالَغةُ: أَن تَبْلُغَ في الأَمر جُهْدَك. ويقال: بُلِغَ فلان أَي جُهِدَ؛

- والبَلاغةُ: الفَصاحةُ. والبَلْغُ والبِلْغُ: البَلِيغُ من الرجال. ورجل بَلِيغٌ وبِلْغٌ: حسَنُ الكلام فَصِيحُه يبلغ بعبارة لسانه كُنْهَ ما في قلبه، والجمعُ بُلَغاءُ، وقد بَلُغَ، بالضم، بَلاغةً أَي صار بَلِيغاً.

تعريف البلاغة في: (معجم المعاني الجامع)

- جاء تعريف معنى (بلغ) في معجم المعاني الجامع ما يلي:
- بلَغَ: (فعل) بلَغَ، يَبلَغ ، بُلوغًا وبَلاغًا ، فهو بالِغ.
- بَلَغَ الغُلاَمُ : أدْرَكَ سِنَّ الرُّشْدِ، وبلَغَ الْوَلَدُ أَشُدَّهُ : وَصَلَ سِنَّ الرُّجُولَةِ وَالكَمَالِ.
- بلَغ الشَّجرُ: حان وقت قطف ثماره
- البَلاغَةُ : حسن البيان وقوة التأثير
- روعة البلاغة: سحرها، ونَهْج البلاغة: طريقها الواضح.

2- تعريفات البلاغيين القدماء لمفهومي: الفصاحة والبلاغة

- 1- تعريفات أبو عثمان الجاحظ
- 2- تعريفات أبو هلال العسكري
- 3- ابن سنان الخفاجي
- 4 – ابن رشيق القيرواني

تعريفات القدماء للفصاحة والبلاغة: أبو عثمان الجاحظ

- عرف الجاحظ البلاغة بقوله : «وقال بعضهم ـ وهو أحسن ما اجتبيناه ودوناه ـ : لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك».
- والفصاحة ـ عنده ـ واسعة المعنى ، ولذلك نراه يتحدث عنها وعن الألفاظ كثيرا ، وتعتبر إشاراته فى كتابه «البيان والتبيين» من أوسع ما وصل إلينا من عهد التدوين الأول. ويرى أنّ الألفاظ جديرة بالرعاية والاهتمام ، يقول :
- «وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أنّ الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلّا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر. والناس لا يذكرون السّغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر ، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلّا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون".

تعريفات القدماء للفصاحة والبلاغة: أبو عثمان الجاحظ

- وتكلم على تنافر الحروف فقال : «فأما فى اقتران الحروف فان الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا تأخير ، والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا بتأخير. وهذا باب كبير وقد يكتفى بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي إليها يجرى»
- وتحدث عن تنافر الألفاظ فقال : «ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلّا ببعض الاستكراه فمن ذلك قول الشاعر:
قبر حرب في مكان قفر **** وليس قرب قبر حرب قبر

- ولما رأى من لا علم له أنّ أحدا لا يستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتعتع ولا يتلجلج ، وقيل لهم : إنّ ذلك إنما اعتراه إذ كان من أشعار الجن ، صدقوا بذلك.

تعريفات القدماء للفصاحة والبلاغة: أبو عثمان الجاحظ

- تناول الجاحظ في ثنايا مؤلفاته تعريف البلاغة عند الأمم الأخرى وعند علماء العربية المعاصرين له. وساق آراء السابقين بأسلوب استطرادي يغلب عليها طابع المناظرة الكلامية أو المحاورة الأدبية، إذ اعتمد طريقة ترتكز على السؤال والجواب. ومما قاله في هذا الباب:
- قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: "معرفة الفصل من الوصل".
- وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: "تصحيح الأقسام، واختيار الكلام".
- وقيل الرومي: ما البلاغة؟ قال: "حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة".
- وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: "وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة".

تعريفات القدماء للفصاحة والبلاغة: أبو عثمان الجاحظ

- ويسوق الجاحظ حوارا دار بين مع معمر أبي الأشعث ورجل أهل الهند، إذ سأله "ما البلاغة عند أهل الهند؟" فأجابه أن لديهم صحيفة مكتوبة في هذا الموضوع لكنه لا يحسن ترجمتها إلى العربية. (لبيان والتبيين: 1/ 88)
- وقال أبو الأشعث: "فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا فيها: "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة. وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة. ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفيها كل التصفية، ولا يهذبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما، أو فيلسوفا عليما، وقد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة، لا على جهة الاعتراض والتصفح، وعلى وجه الاستطراف والتطرف". البيان والتبيين: ج 1/ 92.

تعريفات القدماء للفصاحة والبلاغة: أبو عثمان الجاحظ

- تلك مجموعة من التعليقات التي ساقها الجاحظ عن مفهوم البلاغة عند الأمم الأخرى، مما يدل على سعة اطلاعه ومعرفته ما لدى الأمم الأخرى من فنون الأدب والعلم.
- ولم يتوقف الجاحظ عند أقوال وتعريفات الأخرين لفن البلاغة بل نقاش بعض الآراء معلقا وموضحا ومناقشا. ومما قاله في هذا الباب وهو يقارن فن الخطبة بين العرب والفرس والهنود فيقول: (وجملة القول أنا لا أعرف الخطب إلا للعرب والفرس، فأما الهند فإنما لهم معان مدونة وكتب مخلدة لا تضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف، وإنما هي كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة).
- ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق، وكان صاحب المنطق نفسه بكي اللسان، غير موصوف بالبيان مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه... وفي الفرس خطباء إلا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي وطول خلوة، وعن مشاورة ومعاونة، وعن طول التفكر ودراسة الكتب، وحكاية الثاني عن الأول، وزيادة الثالث في علم الثاني، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عن آخرهم). (البيان والتبيين، 3/ 28).

تعريفات القدماء للفصاحة والبلاغة: أبو عثمان الجاحظ

- يمكن للقارئ أن يخرج بمجموعة من الملاحظات من أقوال الجاحظ السابقة، وهو يقارن بين فن الخطابة عند العرب والأمم الأخرى، ومن هذه الملاحظات:
- 1- أن الخطابة يتميز بها العرب والفرس.
- 2-ضمت كتب الهنود معاني خالدة لا نعرف أصحابها، ولكنها لا تصل إلى بلاغة العرب.
- 3- تميَّز اليونان بالفلسفة والمنطق وليس بالبلاغة والبيان وفن القول.
- 4- الفرس خطباء إلا أن أساليبهم لا تأتي على طوع الخاطر بل يعتمدون فيها على بعضهم البعض بعد معاناة وطول تفكير.
- أما العرب فكل ما لديهم بديهة وارتجال، ولا يتكلفون في أدبهم وخطبهم، يأتي الكلام عندهم عفو الخاطر. ولهذا نجده يقول:

تعريفات القدماء للفصاحة والبلاغة: أبو عثمان الجاحظ

- (وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليس هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام... وقد كان العرب أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر..). (البيان والتبيين: 3/28).
- بعد أن توقفنا عند ما ذكره الجاحظ من تعريفات للأمم الأخرى في مفهوم البلاغة لابد وأن نتساءل عن الأسباب التي دعته إلى استحضار أقوال الأمم الأخرى في هذا الموضوع.
- كان الجاحظ متكلما ينتمي إلى الفكر الاعتزالي، وكان أصحاب هذه الفرقة يلحون على الاطلاع على ما عند الأمم الأخرى من معارف والموازنة بينها وبين آراء العرب خاصة في مجالي الفصاحة والبلاغة، والمعتزلة تجندت للدفاع عن الإسلام أمام أصحاب الملل والنحل، فمن الطبيعي أن يلقي الجاحظ بنفسه في أحضان الثقافات الأجنبية ويأخذ منها ما يراه مناسبا للدفاع عن العرب وعن الإسلام.
- لم يفرد الجاحظ فصولا لمباحث البلاغة والفصاحة كما فعل المتأخرون، وإنما نثر مسائلها نثرا في فصول كتبه المختلفة. وهذا ما تنبه إليه العسكري فيما بعد وألف كتاب (الصناعتين) ليجمع ما تفرق في هذا الموضوع عند الجاحظ.

تعريفات القدماء للفصاحة والبلاغة: أبو هلال العسكري

- قال العسكري: (إن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه علم البلاغة ومعرفة الفصاحة). الصناعتين 1/1

- (فأما الفصاحة فقد قال قوم: إنها من قولهم: أفصح فلان عما في نفسه إذا أظهره، والشاهد على أنها هي الإظهار قول العرب: أفصح الصبح إذا أضاء. وأفصح اللبن إذا انجلت رغوته فظهر، وفصح أيضا. وأفصح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين).

- "وإذا كان الأمر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما، لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له".

- "وقال بعض علمائنا: الفصاحة تمام آلة البيان، فلهذا لا يجوز أن يسمى الله تعالى فصيحا، إذ كان الفصاحة تتضمن معنى الآلة، ولا يجوز على الله تعالى الوصف بالآلة ويوصف كلامه بالفصاحة لما يتضمن من تمام البيان".

تعريفات القدماء للفصاحة والبلاغة: أبو هلال العسكري

- الاختلاف بين الفصاحة والبلاغة عند العسكري يكمن في الآلة،
- يقول: (والدليل على ذلك أن الألثغ والتمتام لا يسميان فصيحين لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف... فعلى هذا تكون الفصاحة والبلاغة مختلفتين، وذلك أن الفصاحة تمام آلة البيان، فهي مقصورة على اللفظ، لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى، والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى إلى القلب، فكأنها مقصورة على المعنى).
- ويزيد في توضيح المراد من كلامه فيقول: (ومن الدليل على أن الفصاحة تتضمن اللفظ، والبلاغة تتناول المعنى أن الببغاء يسمى فصيحا، ولا يسمى بليغا، إذ هو مقيم الحروف وليس له قصد إلى المعنى الذي يؤديه). ص: 7
- ويقول أيضا: (وقد يجوز مع هذا أن يسمى الكلام الواحد فصيحا بليغا إذا كان واضح المعنى، سهل اللفظ جيد السبك غير مستكره فج، ولا متكلف وخم، ولا يمنعه من أحد الاسمين شيء، لما فيه من إيضاح المعنى وتقويم الحروف). ص: 7.

تعريفات القدماء للفصاحة والبلاغة: أبو هلال العسكري

- (البلاغة من قولهم: بلغت الغاية إذا انتهيت إليها وبلغتها وغير. ومبلغ الشيء منتهاه. والمبالغة في الشيء : الانتهاء إلى غايته. فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه).
- (ويقال: بلغ الرجل بلاغة إذا صار بليغا... ويقال: أبلغت في الكلام إذا أتيت بالبلاغة فيه... والبلاغة من صفة الكلام لا من صفة المتكلم... فلهذا لا يجوز أن نسمى الله جل وعز بأنه بليغ، إذ لا يجوز أن يوصف بصفة كان موضوعها الكلام). (كتاب الصناعتين، ص: 6)

تعريفات القدماء للفصاحة والبلاغة: أبو هلال العسكري

- (فنقول: البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفس كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن).
- (وإنما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطا في البلاغة، لأن الكلام إذا كانت عباراته رثة ومعرضه خلقاً لم يسمّ بليغا، وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى). ص: 8
- (ويرد العسكري على قول العتابي الذي عرف البلاغة قائلا: « كل من أفهمك حاجته فهو بليغ». ويوضح هذا الكلام، «وإنما عني: إن أفهمك حاجته بالألفاظ الحسنة، والعبارة النيّرة فهو بليغ)
- ويتابع: (ولو حملنا هذا الكلام على ظاهره للزم أن يكون الألكن بليغا، لأنه يفهمنا حاجته، بل ويلزم أن يكون كل الناس بلغاء حتى الأطفال، لأن كل أحد لا يعدم أن يدل على غرضه بعجمته ولكنته أو إيمائه أو إشارته، بل لزم أن يكون السنّور بليغا، لأنا نستدل بضغائه على كثير من إرادته، وهذا ظاهر الإحالة).

تعريفات القدماء للفصاحة والبلاغة: ابن سنان الخفاجي

- لقد كان تحديد ابن سنان لمعنى الفصاحة تحديدا دقيقا حيث قال في كتابه: (واعلم أن الغرض بهذا الكتاب معرفة حقيقة الفصاحة والعلم بسرها.... وهي الظهور والبيان، وهي مقصورة على وصف الألفاظ، وهي عبارة عن حسن التأليف في الموضوع المختار، ويحتاج إلى معرفتها إلى درجة ومخالطة ومناشدة، وتأمل الأشعار الكثيرة، والكلام المؤلف على طول الوقت وتراضي الأزمنة). (سر الفصاحة 6).
- كما عرف الفرق بينها وبين البلاغة قائلا: (والفرق بين الفصاحة والبلاغة، أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني، لا يقال في كلمة لا تدل عل معنى يفضل على عن مثلها بليغة، وإن قيل فيها فصيحة، وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغا). (سر الفصاحة 6).

تعريفات القدماء للفصاحة والبلاغة: ابن سنان الخفاجي

عني ابن سنان الخفاجي (ت. 466 هـ) في كتابه (سرّ الفصاحة) بتفسير الفصاحة، وبين الفرق بينها وبين البلاغة، وجعل البلاغة خاصة بالألفاظ بينما البلاغة عامة في الألفاظ والمعاني، حيث قال في كتابه: (واعلم أن الغرض بهذا الكتاب معرفة حقيقة الفصاحة والعلم بسرها.... وهي الظهور والبيان، وهي مقصورة على وصف الألفاظ، وهي عبارة عن حسن التأليف في الموضوع المختار، ويحتاج إلى معرفتها إلى درجة ومخالطة ومناشدة، وتأمل الأشعار الكثيرة، والكلام المؤلف على طول الوقت وتراضي الأزمنة). (سر الفصاحة 6).

وبذلك انتهى إلى أن كل كلام بليغ فصيحا، وليس كل فصيح بليغا، فيقول: ((والفرق بين الفصاحة والبلاغة، أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني، لا يقال في كلمة لا تدل عل معنى يفضل على عن مثلها بليغة، وإن قيل فيها فصيحة، وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغا). (سر الفصاحة 6).

تعريفات القدماء للفصاحة والبلاغة: ابن سنان الخفاجي

وأطال في وصف الكلمة المفردة، وردها إلى ثمانية أشياء: أن تؤلف من حروف متباعدة المخارج كي لا تثقل على اللسان، وأن تحسن في السمع، وأن تكون –كما قال الجاحظ – غير متوعرة وحشية، وأن تكون – كما قال أيضا – غير ساقطة عامية، وأن تكون جارية على العرف العربي الصحيح في التصريف والاستعمال، وألا يكون معناها اللغوي القديم قد هجر، وألا تكون كثيرة الحروف، وألا تصغّر تصغير تعظيم على نحو ما يصنع المتنبي في كثير من الألفاظ).

تعريفات القدماء للفصاحة والبلاغة: ابن رشيق القيرواني

- لم نختلف تعريفات ابن رشيق القيرواني عن التعريفات اللغوية والاصطلاحية التي كانت متداولة في الكتب البلاغية القديمة، فقد أعاد ما قيل في تحديدات البلاغة موظفا صيغة السؤال والجواب كما فعل الجاحظ سابقا فيقول على لسان الآخر:
- (ما البلاغة؟ فقال: قليل يفهم، وكثير لا يسأم.
وقال آخر: البلاغة إجادة اللفظ، وإشباع المعنى.
وسئل آخر فقال: معان كثيرة، في ألفاظ قليلة.
وقيل لأحدهم ما البلاغة؟ فقال: إصابة المعنى وحسن الإيجاز.
وسئل بعض الأعراب: من أبلغ الناس؟ فقال: أسهلهم لفظاً، وأحسنهم بديهةً).

تعريفات القدماء للفصاحة والبلاغة: ابن رشيق القيرواني

- انتقل ابن رشيق بعد تلك تعريفات إلى أقوال بعض أعلام العرب المشهورين في زمنهم مثل خلف الأحمر، وأبو الحسن الرماني، فقال:
- (وقال خلف الأحمر: البلاغة كلمة تكشف عن البقية. وقال المفضل الضبي: قلت لأعرابي: ما البلاغة عندكم؟ فقال: الإيجاز من غير عجز، والإطناب من غير خطل.
- قال أبو الحسن علي بن عيسى الرماني: أصل البلاغة الطبع، ولها مع ذلك آلات تعين عليها، وتوصل للقوة فيها، وتكون ميزاناً لها، وفاصلة بينها وبين غيرها، وهي ثمانية أضرب: الإيجاز، والاستعارة، والتشبيه، والبيان، والنظم، والتصرف، والمشاكلة، والمثل، وسيرد كل واحد منها بمكانه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى). 145 -146

3- تعريفات المعاصرين للفصاحة والبلاغة

- انقسم دارسو البلاغة العربية في القرن العشرين إلى فريقين كما أشرنا إلى ذلك سابقا.
- فريق أراد استعادة الأصول القديمة والتعريف بمباحثها وقضاياها العامة، ومن الأمور التي توقفوا عندها مفهومي الفصاحة والبلاغة.
- وفريق آخر حاول التجديد في مباحث البلاغة دون إيلاء أهمية كبرى لتحديدات وتعريفات بعض المفاهيم مثل الفصاحة والبلاغة، وإنما انصب اهتمامهم أكثر إلى ربط مباحث البلاغة العربية بالأصول ومباحث البلاغة الغربية.

تعريفات المحدثين للفصاحة والبلاغة

- ومن أصحاب الفريق الأول نذكر مثلا: شوقي ضيف، بدوي طبانة، أحمد مطلوب، حفني شرف، عبد العزيز عتيق، علي الجارم، مصطفى أمين، على العماري، عبد الرزاق محيي الدين ... وغيرهم.
- والملاحظ أنه هؤلاء على اختلاف أزمان وأماكن واهتماماتهم يلتقون عند تعرف مفهومي: الفصاحة والبلاغة عند الكثير من الآراء والتصورات، وإذا حصل اختلاف فيما بينهم، فإنه لا يعدو أن يكون في بعض الشروح أو التعليقات أو الملاحظات الجزئية عن القاعدة أو المثال، بل إن دراساتهم تتطابق في الكثير من الشواهد والأمثلة.
- ولهذا سنقتصر في هذه المحاضرة على بعض القضايا العامة التي توقفوا عندها أثناء تعريفهم لمفهومي الفصاحة والبلاغة.

تعريفات المحدثين للفصاحة والبلاغة

- تجمع كتب الدراسات البلاغية المعاصرة على أن كلمة فصاحةُ تفيد الظهورُ والبيانَ. تَقُولُ: (أفْصح الصُّبْحُ إذا ظَهَر. والكلامُ الفصيحُ ما كان واضحَ المعنى، سهل اللفظِ، جيِّدَ السَّبك).
- وحديث الدارسين المعاصرين عن الفصاحة في مستواها الاصطلاح لا تخرج عن ثلاثة أشياء وهي: فصاحة الكلمة، وفصاحة الكلام، وفصاحة المتكلم. فما المقصود بهذه الأمور؟
- (يقال كلام فصيح، إذا كان المراد منه بينا واضحا.
- ويقال لسان فصيح، إذا كان طلقا في نطق الكلام مُبِيناً لا يَتَعثَّر.
- والرجل الفصيح هو المنطلق اللسان في القول، الذي يعرف جيِّد الكلام من رَدِيئِه).
- والفصاحة عند القدماء تأتي وصفا للكلمة الواحدة، ووصفا للكلام، ووصفا للمتكلم، فيقال: كلمة فصيحة، وكلام فصيح، ومتكلم فصيح.

تعريفات المحدثين للفصاحة والبلاغة

- 1- أما فصاحة الكلمة: فهي الكلمة التي تخلو من أربعة عيوب وهي:
- التنافر، والغرابة، ومخالفة القياس، وكراهة السمع لها.
- العيب الأول، تنافر الكلمة، ويقصد به تنافر الحروف في الكلمة مما يجعلها ثقيلة على اللسان، أي يصعب النطق بها. وهذا التنافر تنقسم إلى درجات منه ما هو شديد غاية في الثّقل، ومنه ما هو دون ذلك، والاحتكام في هذا الأمر يكون إلى الذوق.
- ومن أمثلة ما هو شديد التنافر كلمة (صَهْصَلِق)، يقال: (رجل صهصلق الصوتْ)، إذا كان ذا صوت شديد.
- وكلمة (طُرَغَشَّ)، يقال: اطرغشَّ المريض، إذا برئَ من مرضِهِ، وتحرك ومشى.
- ومن أمثلة ما هو غير شديد التنافر ما يلي:
- كلمة (النُّقَاخ) يقال لغة: (ماء نقاخ)، إذا كان ماءً عذباً.
- كلمة (مستشزرات) بمعنى (منفتلات) وقد جاءت في شعر امرئ القيس إذ قال:
  - وفرْعٍ يَزِينُ المَتْنَ أسوَدَ فاحِمٍ ***** أَثِيثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ المُتَعَثْكِلِ
  - غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى العُلاَ ***** تَضِلُّ الْمَدَارِي في مُثَنَّى زَمُرْسَلِ
- ومثل قول الأعرابي عندما سئل عن ناقته فقال: (تركتها ترعى الهغخع)، فهذه الكلمة غير فصيحة.

تعريفات المحدثين للفصاحة والبلاغة

- 2- العيب الثاني، الغرابة، تتجسد غرابة الكلمة إما بسبب نُدْرة استعمال العرب لهذه الكلمة، وإما أن يكون المعنى المستفاد منها يحتاج إلى تخريج متكلف بعيد. ومثلوا للغريب النادر بالكلمات الآتية: كلمة (البُعاقُ) بمعنى (المطر)، وكلمة (جَرْدَحَل) بمعنى (الوادي).
- ومن أمثلة ذلك قول أحد الأعراب عندما سقط من فوق حماره فقال: (ما لكم تكأكتم علي كتأكؤكم على ذي جنة؟ إفرنقعوا عني).
- ومثلوا للغريب الذي يحتاج إلى تخريج متكلف بعيد لمعرفة المقصود به بقول رؤبة بن العجاج يصف الأنف بكلمة (مُسَرَّح)، فقال ابن دريد (فهو يريد تشبيه الأنف في دقته واستوائه بالسيف السُّرَيجيّ)، وقال ابن سيدة، صاحب المحكم (هو من السِّراج، فهو يريد تشبيه الأنف من بريقه ولمعانه بالسراج).

3- العيب الثالث، مخالفة الكلمة للقياس الصَّرفي أو النحوي، وهو أن يأتي المتكلم بكلمة غير مألوفة في الاستعمال اللغوي، ومن أمثلة ذلك قول الشاعر:

الحَمْدُ للهِ العلِيِّ الأجْلَلِ ***** أنت مليكُ النَّاسِ ربّا فاقْبِلِ

جاءت كلمة (الأجلل) مخالفة للقياس، وكان من الأحسن القول (الأجلِّ) بالتشديد.

ولهذا لم يستحسنوا قول المتنبي:

فلاَ يُبْرِمُ الأَمْرُ الذي هُوَ حَالِلُ **** ولا يُحْلَلُ الأَمْرُ الذي هُوَ يُبْرَمُ

- هذا كلام غير فصيح؛ لأنه اشتمل على كلمتين غير جارتين على القياس الصرفي، وهما (حالل)، و(يحلل)، فإن القياس حَالٌّ ويُحَلُّ بالإدغام.

تعريفات المحدثين للفصاحة والبلاغة

- **2- فصاحة الكلام**
- والمقصود بفصاحة الكلام، هو (ما كان سهل اللفظ، واضح المعنى، جيد السبك، متلائم الكلمات، فصيح المفردات، غير مستكره ولا ممجوج ولا متكلف، ولا مخالف لقواعد العرب في نحوها وصرفه، وغير خارج عن الوضع العربي في مفرداته وتراكيبه، وليس في كلماته تنافر، وليس فيه تعقيد لفظي، ولا تعيد معنوي). (مطلوب ص: 116).
- العيب الأول: السلامة من ضعف التأليف، الاحتكام في هذه الأمور يعود إلى أصحاب الذوق السليم الذين يحسون بتنافر الكلام عند النطق به، ومن أمثلة ذلك ما جاء في قول المتنبي:
  - كريمٌ متَى أمدَحْهُ أَمْدَحْهُ والورَى ***** معي وإذَا ما لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي
- وثقل هذا البت جاء بتكرير لفظ (أمدحه) بما فيه من حاء وهاء.
- ومن الأمثلة الأخرى التي ساقوها في تنافر الكلام أو ثقل النطق به بيت المتنبي:
  - أقلْ أنلْ أقطع أحمل علِّ سلِّ أعِدْ ***** زِدْ هِشَّ بِشَّ تفضّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ
- جمع المتني في هذا البيت أفعال الأمر دون عاطف بينها، وهذا ما جعله يسقط الإغراب.

تعريفات المحدثين للفصاحة والبلاغة

- ومن أمثلة (ضعف التأليف) (وهو أن يكون تأليف الكلمات في الجمل أو إجراؤها الإعرابي على خلاف المشهور المتبع من قواعد النحو، أو فيه لحن نحوي أو صرفي).
- كأن يعود الضمير على متأخر لفظا ورتبة، بينما الأصل أن يعود الضمير على متقدم في اللفظ أو الرتبة. ومن أمثلة ذلك قول حسان بن ثابت:
  - ولو أنّ مجْداً أَخْلَدَ الدهْرَ وَاحِداً **** منَ النَّاسِ أبْقَى مَجْدُهُ الدَّهْرَ مُطْعِما
- فإن الضمير في (مجده) راجع إلى (مطعما) وهو متأخر في اللفظ كما ترى، وفي الرتبة لأنه مفعول به، فالبيت غير فصيح. (البلاغة الواضحة، ص: 7)
- العيب الثاني، سلامة التركيب من تنافر الكلمات، وهي ألا يكون اتصال بعض الكلمات ببعض (مما يسبب ثقلها على السمع، وصعوبة أدائها باللسان، كقول الشاعر:
  - وقبْرُ حَرْبٍ بِمَكانٍ قَفْرٍ ***** ولَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ
- وقد (قيل: إن هذا البيت لا يتهيأ لأحد أن ينشده ثلاث مرات متواليات دون أن يتتعتع، لأن اجتماع كلماته وقرب مخارج حروفها، يحدثان ثقلا ظاهرا، مع أن كل كلمة منه لو أخِذَتْ وحدها كانت غير مستكرهة ولا ثقيلة).

تعريفات المحدثين للفصاحة والبلاغة

- **العيب الثالث**، **سلامة التركيب من التعقيد اللفظي**، (وهو أن يكون الكلام خفي الدلالة على المعنى المراد بسبب تأخير الكلمات أو تقديمها عن مواطنها الأصلية أو بالفصل بين الكلمات التي يجب أن تتجاور ويتصل بعضها ببعض)، ومثال ذلك قول المتنبي:
  - أنَّى يكونُ أبَا البرِيَّةِ آدَمٌ ***** وأَبُوكَ والثَّقَلانِ أنْتَ مُحَمَّدُ
- في هذا البيت تقديم وتأخير، والوضع الصحيح أن يقول: كيف يكون آدم أبا البرية، وأبوك محمد، وأنت الثقلان؟ يعني أنه قد جمع في الخليقة كل الفضل والكمال، والمقصود بالثقلان: الإنس والجن، أي أنه جمع بين خصال الإنس والجن، وهذا كلام سخيف وتشبيه بعيد عن العقل وعري عن الحقيقة. فقد فصل بين المبتدأ والخبر وهما (أبوك محمد)، وقدم الخبر على المبتدأ تقديما يدعو إلى اللبس في قوله (والثقلان أنت).

تعريفات المحدثين للفصاحة والبلاغة

- **الرابع: سلامة التركيب من التعقيد المعنوي:**
- (وهو أن يعمد المتكلم إلى التعبير عن معنى ويستعمل فيه كلمات في غير معانيها الحقيقية، فيسيء اختيار الكلمات للمعنى الذي يريده، فيضطرب التعبير ويلتبس الأمر على السامع. مثال ذلك كلمة (اللسان) تطلق أحيانا ويراد بها اللغة كما في قوله تعالى في سورة إبراهيم (ومَا أرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ بلِسَانِ قَوْمِهِ ليُبَيِّنَ..)، أي ناطقا بلغة قومه، وهذا استعمال صحيح وفصيح. أما إذا استعمل إنسان هذه الكلمة في (الجاسوس)، وقال: (بث الحاكم ألسنته في المدينة) كان مخطئا، وكان كلامه فيه تعقيد معنوي).

تعريفات المعاصرين للفصاحة والبلاغة

- ويكاد يجمع هؤلاء على أن فصاحة الكلمة أو الكلام أو المتكلم تعود أساسا إلى الذوق السليم، فهو العمدة (في معرفةِ حُسنِ الكلمات وسَلاسَتِها، وتمييز ما فيها من وجوه البشاعة ومظاهر الاستكراه؛ لأنَّ الألفاظَ أصواتٌ ، فالذي يطْرَبُ لصوْت البُلبُل، وينْفِر من أصوات البُوم والغِرْبان، ينْبُو سمعُه عن الكلمة إذا كانت غريبةً مُتَنَافِرَةَ الحروف . ألا ترى أن كلمتَي "المُزْنةِ" و "الدِّيمةِ " للسَّحابة المُمْطِرة، كلتاهما سَهلَة عذْبَةٌ يسكنُ إليها السمعُ، بخلاف كلمة "البُعَاقِ" التي في معناهما؛ فإنها قبيحةٌ تَصُكُّ الآذانَ. وأمثال ذلك كثير في مُفْردات اللغة تستطيع أن تُدْركه بذَوْقكَ).

تعريفات المعاصرين للفصاحة والبلاغة

- أما تعريفات المعاصرين للبلاغة فلا تخرج عن معانيها اللغوية، إذ يقرون أن البلاغة لغة هي: الوصول والانتهاء، واصطلاحا: مطابقة الكلام لمقتضى الحال. على أن تكون مفردات التعبير وتراكيبه فصيحة وسليمة من تنافر الحروف والغرابة. كما أنّ البلاغة لا تكون وصفاً للكلمة أو المتكلّم، إنّما تكون وصفاً للكلام، وهي تحمل معاني كثيرة.
- والبلاغة عند هؤلاء فن من الفنون الجميلة، وإن كانت ترتبط بالمعاني وفهم محتويات الكلام، فهي لا تختلف عن عمل الفنان الذي يرسم بالألوان أو ويطرب بالأنغام... ولا ينعت الكلام بالبلاغة إلا إذا كانت لتعابيره أثر خلاب في النفوس، وأن يأتي مطابقة للحالات والمقامات التي قيل فيها.

تعريفات المحدثين للفصاحة والبلاغة

- فليستِ البلاغةُ قبلَ كل شيءٍ إلا فنًّا من الفنون يَعْتمِدُ على صفاء الاستعداد الفِطريِّ ودقة إدراك الجمالِ، وتبَينِ الفروقِ الخفيَّة بين صنوف الأَساليب. وليسَ هناك من فرق بين البليغ والرَّسام إلا أنَّ هذا يتناولُ المسموعَ من الكلام، وذلك يُشاكلُ بين المرْئيِّ من الألوان والأَشكالِ، أمَّا في غير ذلك فهما سواء، فالرَّسامُ إذا همَّ برسم صورة فكَّر في الألوان الملائمة لها، ثم في تأْليفِ هذه الأَلوان بحيث تخْتَلِبُ الأَبصار وتُثير الوجدان، والبليغُ إذا أَراد أَن يُنْشىءَ قصيدةً أَو مقالةً أو خطبةً فكَّر في أَجزائِها، ثم دعا إليه من الأَلفاظ والأَساليب أَخفَّها على السمع، وأَكثرها اتصالا بموضوعهِ.

تعريفات المحدثين للفصاحة والبلاغة: الخلاصات

- خلاصة القول، جاءت كلمة (فصاحة) و(بلاغة) في المعاجم اللغوية القديمة وعند بعض البلاغيين العرب بمعاني عديدة، ولكن بالرغم من هذا التعدد فإنها تلتقي عند معاني أساسية وهي: (الظهور)، و(الوضوح) و(البيان). ومن بين التحديدات التي تضمنتها المعاجم القديمة، وترددت عند البلاغيين القدماء -على اختلاف أزمانهم وأوطانهم - ما يلي:
- فصاحة الكلام خلوصه من الصفات الآتية: (ضعف التأليف، تنافر الكلمات، التعقيد اللفظي أو المعنوي)، وذهبوا إلى أن الفصاحة يختلف معناها باختلاف موصوفها، فالموصوف يمكن أن يكون كلمة، ويمكن أن يكون كلاما، ويمكن أن يكون متكلما.

تعريفات المحدثين للفصاحة والبلاغة: الخلاصات

- أما البلاغة، فتفيد من الناحية اللغوية مجموعة من المعاني منها: الوصول والانتهاء أو الإبلاغ أو الإيصال أو التبليغ، والشيء البالغ أي الجيد. أما في المستوى الاصطلاحي فقد تضمنت مجموعة من المعاني، فقد ساق الجاحظ والذين جاءوا من بعده من أمثال العسكري وابن سنان وابن رشيق وابن الأثير مجموعة من الأقوال في تحديد البلاغة بعضها ينتمي إلى العرب وبعضها الآخر إلى غير العرب مثل الهنود والفرس واليونان والروم. ويتميز العرب بفصاحتهم وبلاغتهم التي تتميز عن الأقوام الأخرى سواء في الصياغة أو المضامين
- والملاحظ أن تعريفات القدماء على اختلاف أزمان وأماكن واهتماماتهم يلتقون عند نقط أساسية وهي أن الفصاحة والبلاغة لا تتميز عن الفصاحة إلا في بعض الجزئيات وهي أن الفصاحة ترتبط أساسا بالألفاظ وأن البلاغة تهتم أكثر بالمعاني والتراكيب اللغوية. وجاءت دراستهم متقاربة ومتداخلة في كثير من الأمور سواء في بعض الشروحات أو التعليقات أو الملاحظات أو في بناء القواعد البلاغية أو في عملية الاستشهاد بالأبيات الشعرية والآيات القرآنية والأمثلة الاصطناعية.